الباب الثامن عشر

انتحار بلاد اليونان

الفصل الأول

العالم اليونانى فى عهد بركليز

خليق بنا قبل أن نواجه منظر حرب البلوبونيز المحزنة أن نلقى نظرة على العالم اليونانى خارج أتكا . ولكن معلوماتنا عن الدولة الواقعة فى هذا العالم ضئيلة إلى حد لا يسعنا معه إلا أن نفترض ما لا تستطيع أن نقيم عليه الدليل ؛ وهو أنها كانت تشترك مع أثينة فى الازدهار الثقافى الذى امتاز به العصر الذهبى وإن لم تبلغ مبلغ أثينة نفسها فى هذا الازدهار .

فى عام ٤٥٩ سير بركليز أسطولا ضخماً ليطرد الفرس من مصر حرصاً منه على أن يضمن لبلاده قمحها . وأخفقت الحملة فى غرضها ، وسار بركليز من ذلك الحين على السياسة التى كان يسير عليها ثمستكليز ، وهى أن يكسب العالم بالتجـارة لا بالحرب . من أجل ذلك ظلت مصر وقبرص طوال القرن الخامس خاضعتين لحكم الفرس ، واحتفظت رودس بحريتها ، ثم انضمت مدنها الثلاث وأصبحت مدينة واحدة عام ٤٠٨ فتهيأت بذلك إلى أن تكون فى العهد الذى اصطبغ فيه العالم المعروف بالصبغة اليونانية مركزاً من أغنى المراكز التجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . واحتفظت المدن اليونانية فى آسية باستقلالها الذى ظفرت به فى ميكالى عام ٤٧٩ حتى أضحت بعد تدمير الإمبراطورية الأثينية

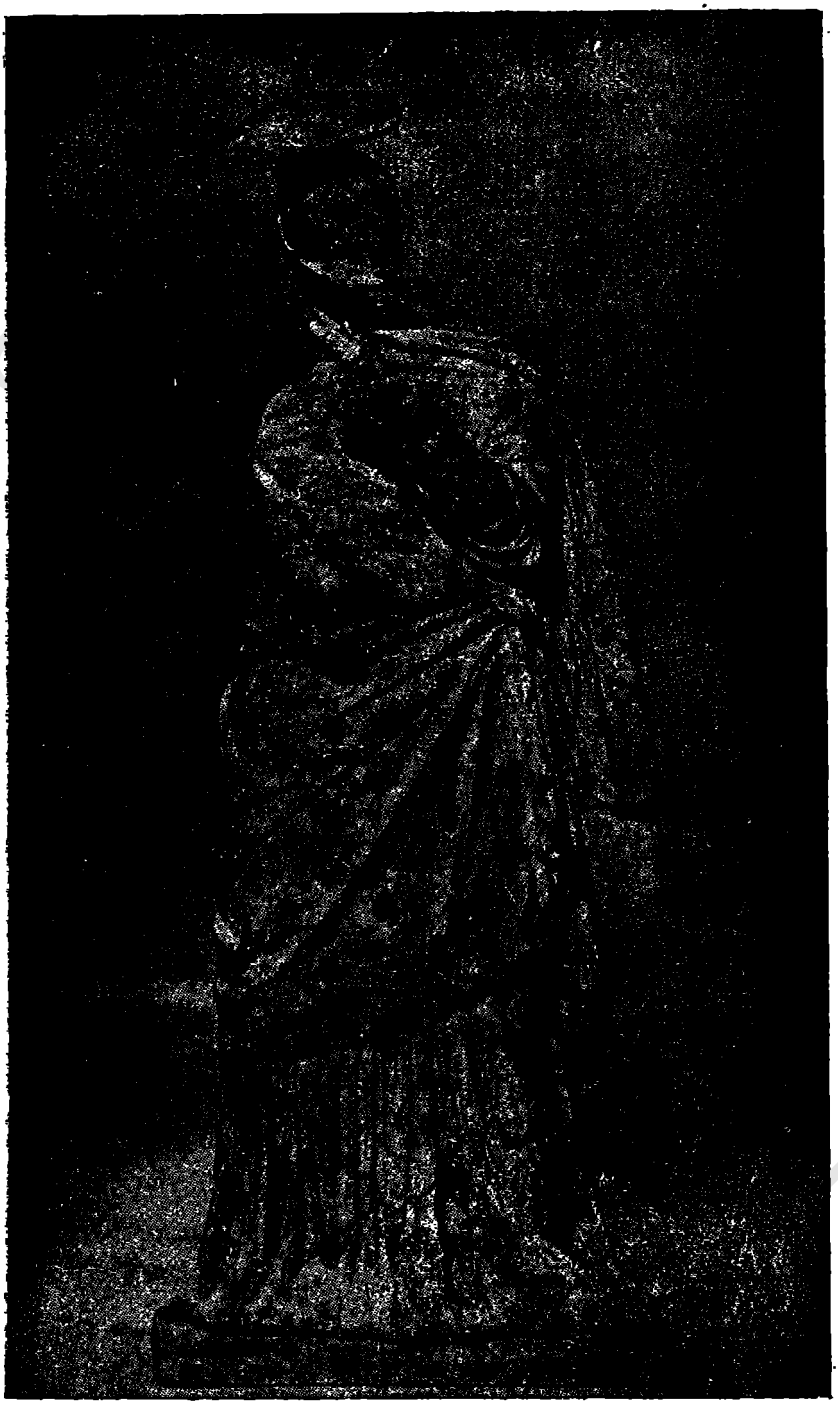

(شكل ٣٨) تمثال من تنجارا فى متحف نيويورك

ضعيفة عاجزة عن مقاومة جباة الملك العظيم(*) . وازدهرت المستعمرات اليونانية فى تراقية وعلى شواطئ الهلسپنت والپروپنتس واليوكسين(**) تحت السيطرة الأثينية ، ولكن الحرب البلوپونيزية أكلت فيها الأخضر واليابس ، وخرجت مقدونية تحت حكم أرخلوس Archelaus من غمار الهمجية وأضحت إحدى الدول الكبرى فى العالم اليونانى . فأنشئت فيها الطرق الصالحة ، وصار لها جيش حسن النظام والتدريب من رجال الجبال الأشداء ، وبنيت لها عاصمة جديدة جميلة فى پلا ، ورحب بلاطها بكثيرين من عباقرة اليونان أمثال تموثيوس Timotheus ، وزيوكسيز Zeuxis ، ويوريپديز ، وضربت بلاد اليونان فى الحلف البؤوتى مثلا طيباً لم تنتفع به لحياة الدول حرة مستقلة فى ظلال السلم والتعاون الدولى .

وفى إيطاليا عانت المدن اليونانية أشد البلاء من جراء الحروب المتكررة ومن تفوق أثينة فى مجال التجارة البحرية . وأرسل پركليز فى عام ٤٤٣ جماعة من الهلينيين جمعهم من عدة دول لينشئوا بالقرب من سيبارس مستعمرة ثوريای Thurii الجديدة لتكون تجربة فى سبيل الوحدة الهلينية الجامعة ، ووضع پروتاغوراس قانوناً عاماً للمدينة ، وخطط هبودامس المهندس المعمارى شوارعها على نظام مربع حذت كثير من المدن الأخرى حذوه فى القرون التالية . ولكن لم تمض على تلك التجربة إلا بضع سنين حتى انقسمت المستعمرات أحزاباً وشيعاً حسب أصولها ، وحتى عاد معظم الأثينيين ، وأكبر الظن أن هيرودوت كان منهم ، إلى أثينة .

وظلت صقلية — وهى التى كانت دائماً مضطربة ولكنها كانت دائما غنية — تنمو ثروتها وتزداد ثقافتها . وشادت سلينس وأقراغاس معابد ضخمة

(*) يريد ملك الفرس . (المترجم)

(**) أى الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود . (المترجم) .

وبلغت أقراغاس فى عهد ثيرون درجة من الغنى قال فيها أنبادوقليس : « ينغمس رجال أقراغاس فى الترف كأنهم يموتون غداً ، ولكنهم يؤثثون بيوتهم كأنهم يعيشون أبداً[١] » . وترك چيلون الأول بعد موته فى عام ٤٧٨ لسرقوصة نظاماً إدارياً لا يكاد يقل إحكاماً عن النظام الذى خلفه نابليون لأوربا الحديثة . وأضحت المدينة فى عهد أخيه هيرون الأول الذى جلس على العرش من بعده مركزاً للأدب والعلم والفن فضلا عن التجارة والثروة . وفيها أيضاً بلغ الترف غايته . فكانت المآدب السرقوصية مضرب المثل فى البذخ ، وكثرت « البنات الكورنثيات » فى المدينة حتى كان الرجل الذى ينام فى منزله يعد من القديسين ؛ وكان الأهلون سريعى البديهة حداد الألسنة ، يستمتعون بالخطب البليغة إلى حد أفسد عليهم أمورهم ، ويتزاحمون فى الملهى الفخم ذى الهواء الطلق ليستمعوا إلى مسالى إيكارمس ومآسى إسكلس[*] .

وكان هيرون هذا ملكاً مستبداً غليظ القلب حسن القصد ، قاسياً على أعدائه ، مكرماً لأصدقائه . فتح بابه وخزائنه لسمونيديز ، وبكليديز ، وپندار ، وإسكلس ، واستعان بهم على جعل سرقوصة إلى وقت ما عاصمة اليونان العقلية .

لكن الناس لا يعيشون على الفن وحده ؛ وكان السرقوصيون يتوقون إلى نعمة الحرية ، فلما توفى هيرون خلعوا أخاه وأقاموا حكومة دمقراطية مقيدة ، وشجع هذا مدن الجزيرة الأخرى ، فحذت حذو سرقوصة وطردت الطغاة الحاكمين ، وقضت على الأشراف ملاك الأراضى وأنشأت دمقراطيات تجارية تقوم على نظام من الاسترقاق القاسى الشديد . وقضت الحرب بعد سنتين

(*) وأكبر الظن أن هذا الملهى قد بنى فى عهد هيرون الأول (٤٧٥ — ٤٦٨) ثم أعيد بناؤه فى عهد هيرون الثانى (٢٧٠ — ٢١٦) . وقد بقى منه جزء كبير . ومثلت فيه فى هذا القرن كثير من المسرحيات اليونانية القديمة .

سنة من ذلك الوقت على هذه الفترة من فترات الحرية كما قضت من قبل على فترة أخرى مماثلة لها عن يد جيلون الأول . وفى عام ٤٠٩ غزا القرطاجيون صقلية بأسطول ضخم مؤلف من ألف وخمسمائة سفينة وعشرين ألف رجل بقيادة هنيبال حفيد هملكار ؛ وذلك بعد أن ظلوا ثلاثة أجيال محتفظين بذكرى هزيمة هملكار فى هيميرا Himera . وحاصر هنيبال سلينس وكانت قد جنحت إلى السلم بعد أن عمها الرخاء ، وأهملت معاقلها فلم تصلح شأنها . فلما أن باغت العدو المدينة استغاثت بأقراغاس وسرقوصة ، وتباطأ أهلهما المنعمون فى إغاثتها تباطؤ الاسپارطيين ، حتى استولى العدو على سلينس ، وذبح كل من بقى حيا من أهلها وقطع أوصالهم ، وأصبحت المدينة جزءاً من الإمبراطورية القرطاجية . وواصل هنيبال زحفه على هيميرا ، واستولى عليها دون عناء ؛ وعذب وقتل ثلاثة آلاف من أهلها ، ليرضى بذلك شبح جده المهزوم . ثم فشا الطاعون بين جنوده فأهلك أكثرهم ، ومات به هنيبال نفسه فى أثناء حصار أقراغاس ، غير أن القائد الذى خلفه سكن غضب آلهة قرطاجة بأن حرق ابنه زلفى لهذه الآلهة . واستولى القرطاجيون على المدينة ، وعلى چيلا Gela وكمرينا Camarina وزحفوا على سرقوصة . وبوغت السرقوصيون وهم منهمكون فى ولائمهم ، فأسلموا زمام السلطة المطلقة لديونيشس أعظم قائد فى بلدهم ، ولكن ديونيشس عقد الصلح مع القرطاجيين وترك لهم القسم الجنوبى من صقلية بأجمعه واستخدم جنوده فى إقامة الدكتاتورية ثانية (٤٠٥) . ولم يكن ذلك كله غدرا منه وخيانة لبلاده ، فقد كان يعرف أن المقاومة غير مجدية ، فنزل للعدو عن كل شىء عدا مدينته وجيشه ، واعتزم أن ينهض بالمدينة والجيش حتى يستطيع أن يفعل ما فعله چيلون من قبله فيطرد الغزاة من صقلية .

الفصل الثانى

كيف شبت نار الحرب الكبرى

لا يستطيع المواطن الساذج إلا أن يعتقد أن سبب كل الحروب هو على الدوام سبب شخصى — بل شخص واحد فى العادة ، كما لا تستطيع النفس الساذجة إلا أن تصور إلهها فى صورة إنسان . وحتى أرسطوفان نفسه قد فعل ما فعله الثرثارون الثامون من رجال عصره فادعى أن پركليز هو الذى أوقد نار الحرب البلوپونيزية بهجومه على ميغارا لأن ميغارا أساءت إلى إسپانيا[٣] ٥

والراجح أن پركليز الذى لم يتردد فى الاستيلاء على أيچينا ، كان يأمل أن تستحوذ أثينة على التجارة اليونانية بأجمعها ، وذلك بسيطرتها على ميغارا وعلى كورنثة أيضاً ؛ ولقد كان مركز كورنثة بالنسبة لبلاد اليونان كمركز اسطنبول فى شرق البحر الأبيض المتوسط فى وقتنا الحاضر — كانت باباً ومفتاحاً لتجـارة تصف قارة . لكن سبب الحرب الجوهرى هو نمو الإمبراطورية الأثينية ، وازدياد سيطرة أثينة على الحياة التجارية والسياسية فى بحر إيجة . لقد كانت أثينة تترك التجارة حرة فى هذا البحر وقت السلم ، لكنها لم تكن تفعل ذلك إلا إذا أجازته هى وسمحت به مصالحها الإمبراطورية ؛ ولم يكن فى مقدور أية سفينة أن تمخر عباب هذا البحر إلا برضائها ٥ وكان رجال أثينيون موكلون منها يحددون مستقر كل سفينة تغادر ثغور الحبوب فى البلاد الشمالية ؛ ولما أن كاد الجدب يهلك ميثونى Methone لم تستطع أن تستورد القليل من الحبوب إلا بعد استئذان أثينة[٤] . وكانت تلك المدينة تدافع عن هـذه السيطرة لأنها تراها أمراً حيوياً لا بد منه لبقائها ، فقد كانت تعتمد فى طعامها على ما تستورده من خارج بلادها ، وقد أجمعت أمرها على أن تحرس الطرق التى يصل منها هذا

الطعام إليها ؛ على أنها بحراستها طرق التجارة الدولية كانت تؤدى خدمة حقة للسلم والرخاء فى بحر إيجة ، ولكن الطريقة التى سارت عليها فى أداء هذه الخدمة ازدادت إيلاماً للمدن الخاضعة لها وجرحاً لكبريائها كلما زاد ثراء هذه المدن وقوى إحساسها بعزتها القومية . وكانت أثينة قد أخذت تنفق الأموال التى تبرعت بها هـذه المدن لتصد بها غارات الفرس عنها فى تجميلها ، بل لقد بلغ منها أن أخذت تنفقها فى شن الحرب على غيرها من مدن اليونان(٥) . وكانت الأحوال المفروضة على تلك المدن تزداد عاماً بعد عام حتى بلغت فى عام ٤٣٢ ق . م ٤٦٠ وزنة (٢٫٣٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) فى العام . وكانت أثينة قد قصرت على المحاكم الأثينية حق النظر فى جميع القضايا التى تنشأ فى داخل الحلف إذا كان أحد طرفى النزاع مواطناً أثينياً أو كانت القضايا تشمل جرائم كبرى . فإذا ما وقفت مدينة فى وجه أثينة أخضعتها بالقوة ، وعلى هذا النحو أخمد پركليز بسرعة ومهارة الفتن التى ثار نقعها فى إيچينا (٤٥٧) ، وعوبية (٤٤٦) ، وساموس ٤٤٠ .

وإذا جاز لنا أن نصدق قول توكيديدز فإن زعماء الدمقراطية الأثينية كانوا يعترفون أن حلف المدن الحرة قد أصبح إمبراطورية تقوم على القوة ، وإن كانوا قد اتخذوا الحرية الغرض الأسمى لسياستهم فى داخل أثينة نفسها . وفى ذلك يقول توكيديدز على لسان كليون مخاطباً الجمعية فى عام ٤٢٧ : « عليكم أن تذكروا أن إمبراطوريتكم ليست إلا طغياناً تفرضونه على أقوام خاضعين لسلطانكم رغم أنوفهم ، وأنهم لا ينفكون يأتمرون بكم ، وهم لا يطيعونكم نظير خير تقدمونه لهم وتضرون به أنفسكم لتنفعوهم فتؤثروهم بذلك على أنفسكم ، بل يطيعونكم لأنكم سادتهم ، وهم يحبونكم مرغمين ، ولكنهم لا يخضعون لكم إلا بالقوة »(٦) ، وقد أدى هذا التناقض الأساسى بين عبادة الحرية ، وطغيان الإمبراطورية منضما إلى النزعة الفردية المتأصلة

فى الدول اليونانية أدى هـــذا وذاك إلى القضاء على العصر الذهبى فى بلاد اليونان .

وشرعت مدن اليونان جميعها تقريباً تقاوم سياسة أثينة[٧] ، فقاومت بوئوتية فى كورونيا (٤٤٧) ما بذلته أثينة من جهود لضمها إلى الإمبراطورية . واستغاثت بعض المدن الخاضعة لأثينة وبعضها الآخر الذى يخشى الخضوع لها باسپارطة ، وطلبت إليها أن تقف فى وجه أثينة . ولم يكن الإسپارطيون متحمسين للحرب راغبين فيها ، لعلمهم بقوة الأسطول الأثينى وشجاعة رجاله ، ولكن الكراهة العنصرية القديمة بين الدوريين والأيونيين أشعلت نار البغضاء فى قلوبهم ، وبدا للألجركية الإسپارطية مالكة الأراضى أن الخطة التى جرت عليها أثينة وهى إقامة حكومة دمقراطية تستمد سلطتها من الإمبراطورية فى كل مدينة من المدن الخاضعة لها ، نقول بدا لهذه الألجركية أن تلك الخطة تهدد كيان الحكومات الأرستقراطية أينما كانت ، واكتفى الأسپارطيون حيناً من الدهر بتقديم المعونة للطبقات العليـــا فى كل مدينة من هذه المدن ، وأخذوا يعملون على مهل فى تكوين جبهة متحدة ضد أثينة .

ورأى پركليز نفسه يحيط به الأعداء من داخل أثينا وخارجها ، فأخذ يعمل للسلم ويستعد للحرب . وهداه تفكيره إلى أن فى مقدور الجيش أن يدافع عن أتكا ، أو عن جميع سكان أتكا إذا اجتمعوا داخل أسوار أثينة ، وأن فى مقدور الأسطول أن يحمى الطرق التى تسلكها السفن المحملة بالحبوب من بلاد اليوكسين أو مصر إلى ثغر أثينـــة المسور ويبقيها مفتوحة . وكان يعتقد أنه لا يستطيع النزول عن شىء لأعدائه دون أن يعرض للخطر موارد الطعام الذى تعتمد عليه أثينة ؛ وبدا له كما يبدو لإنجلترا فى هذه الأيام ، أنه أمام واحدة من اثنتين إما الإمبراطورية أو الموت جوعاً ولا وسط بينهما . ولكنه مع هذا أرسل الرسل إلى جميع الدول اليونانية يدعوها إلى عقد مؤتمر هلينى للبحث عن حل للمشاكل التى تدفع

اليونان للحرب . فرفضت اسپارطة الدعوة ، إذ أحست أن قبولها إياها سيفسر بأنه اعتراف منها بزعامة أثينة ، وحذت كثير من الدول الأخرى حذوها بوحي منها[٨] ، وبذلك فشل مشروع بركليز . وفى هذا يقول توكيديدز قالة تفسر كثيراً من الحقائق التاريخية : « لقد كانت البلوپونيز وأثينة مماوءتين بالشباب تدفعهم نقص تجربتهم إلى الرغبة فى امتشاق الحسام[٩] » .

كانت هذه العوامل الأساسية تعمل عملها ، ولم يكن قيام الحرب يتطلب أكثر من حادث يستفز النفوس . وقد وقع هذا الحادث فى عام ٤٣٥ . وذلك أن كرسيرا Corcyra إحدى المستعمرات الكورنثية أعلنت استقلالها عن كورنثة وانضمت إلى الحلف الأثينى ليحميها من تلك المدينة . وأرسلت كورنثة عمارة بحرية لإخضاع الجزيرة . واستغاث الدمقراطيون المنتصرون فى كرسيرا بأثينة فسيرت أسطولا لإغاثتهم . وحدثت معركة غير حاسمة بين أهل كرسيرا وأثينة من جهة ، وأهل ميغارا وكورنثة من جهة أخرى . وفى عام ٤٣٢ حاولت بوتيديا Potidaea وهى مدينة فى جزائر خلقيدية تؤدى الجزية لأثينة ولكن أهلها من عنصر كورنثى ، حاولت هذه المدينة أن تخلع النير الأثينى عن كاهلها ، فسير عليها بركليز جيشاً يحاصرها ، ولكنها ظلت تقاومه سنتين كاملتين استنفدت فى خلالها موارد أثينة العسكرية وأضعفت هيبتها . ولما أن مدت ميغارا يدها مرة أخرى بالمعونة إلى كورنثة أمر بركليز بمنع كل محصولاتها من دخول أسواق أتكا والإمبراطورية . واستغاثت ميغارا وكورنثة باسپارطة ، فعرضت على أثينة أن تلغى قرار التحريم ، ووافق پركليز على شريطة أن تسمح اسپارطة للدول الأجنبية بأن تتجر مع لكونيا ، فرفضت اسپارطة هـذا الشرط ، واشترطت من جانبها للصلح أن تعترف أثينة باستقلال جميع المدن اليونانية استقلالا تاما ، أى أن تنزل أثينة عن إمبراطوريتها . وأقنع بركليز الأثينيين أن يرفضوا هذا الطلب ، فما كان من اسپارطة إلا أن أعلنت الحرب[١٠] .

الفصل الثالث

من الوباء إلى السلم

وانضمت بلاد اليونان كلها إلى هذا الطرف أو ذاك من الطرفين المتنازعين فانضمت دول البلوبونيز ما عدا أرغوس إلى اسپارطة ، وحذت حذوها كورنثة ، وميغارا وبوئونية ، ولكريس ، وفوسيس . أما أثينة فقد قدمت لها المدائن الأيونية واليكسينية ، والجزائر الإيچية فى بادئ الأمر بعض معونتها . وكانت المرحلة الأولى من مراحل تلك الحرب كالمرحلة الأولى من الحرب العالمية الكبرى فى هذه الأيام(*) صراعاً بين القوتين البحرية والبرية ، فقد ضرب الأسطول الأثينى مدن البلوبونيز الساحلية ، وأما الجيش الاسپارطى فغزا أتكا واستولى على غلاتها وأتلف تربتها . ودعا پركليز سكان أتكا إلى الاعتصام داخل أسوار أثينة ، وأبى أن يخرج جيوشه للقتال ، ونصح الأثينيين الذين هاج هائجهم بأن يصبروا ويصابروا حتى ينتصر أسطولهم .

وقد كان هذا تدبيراً سديدا من الناحية العسكرية الفنية ، ولكنه غفل من عامل كاد أن يحسم النزاع . فقد كان ازدحام أثينة بأهل أتكا سبباً فى تفشى وباء فيها — لعله الملاريا(١١) — فى عام ٤٣٠ دام قرابة ثلاث سنين ، وأهلك ربع جنودها ، وعددا كبيرا من أهلها المدنيين(**) . واستولى اليأس على قلوب الأهلين لما لحقهم من العذاب بسبب الوباء والحرب فاتهموه بأنه أصل كليهما . وتقدم كليون وغيره للقضاة متهمين پركليز بأنه أساء التصرف

(*) يريد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) . (المترجم)

(**) انظر وصف لكريشس القوى لهذا الوباء فى ص ١١٣٥ — ١٢٨٦ من الجزء الرابع من De Rerum Natura .

فى الأموال العامة ؛ وإذا كان قد استخدم أموال الدولة كما يبدو فى إرشاء ملوك اسپارطة لعقد الصلح فقد عجز عن أن يقدم حساباً مقنعاً عما تصرف فيه من الأموال ، وثبتت عليه التهمة ، وأخرج من منصبه ، وفرضت عليه غرامة باهظة مقدارها خمسون وزنة (٣٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) . وفى ذلك الوقت عينه أو حواليه ماتت أخته ومات اثنان من أبنائه الشرعيين بالوباء ؛ لكن الأثينيين لم يجدوا لهم زعيما يخلفه فأعادوه إلى منصبه (٤٢٩) ؛ وأرادوا أن يظهروا تقديرهم له وعطفهم عليه فى محنته ، فخرقوا قانونا كان هو واضعه ، ومنحوا ابناً له من اسپازيا حقوق المواطنية الأثينية . ولكن الأثيني الطاعن فى السن كان هو نفسه قد أصيب بالوباء ، ووهنت قواه يوماً بعد يوم ومات بعد بضعة أشهر من عودته إلى منصبه . ولقد وصلت أثينة فى عهده إلى ذروة مجدها ، وصلت إليها بفضل الثروة التى أفاءها عليها حلف كاره من جهة ، وبفضل القوة التى أوغرت عليها صدور الدول جميعاً من جهة أخرى ، ولهذا فإن القواعد التى رست عليها دعائم العصر الذهبى لم تكن سليمة ، وكان لا بد أن تتقوض حين عجزت السياسة الأثينية عن تسيير دفة الحكم فى زمن السلم .

ولعل أثينة ، كما يشير توكيديدز ، كانت تستطيع أن تظفر بالنصر رغم هذا العجز ، لو أنها ظلت تسير على خطة فابيوس Fabius التى وضعها پركليز . ولكن خلفاءه تعجلوا فى تنفيذ منهاج كان يتطلب كثيراً من ضبط النفس . فقد كان زعماء الحزب الدمقراطى الجدد تجاراً من نمط كليون تاجر الجلود ، ويكراتيز Eucrates بائع الحبال ، وهيپربولس Hyperbolus صانع المصابيح . وكان هؤلاء الرجال يدعون إلى مواصلة الحرب فى البر والبحر ، وكان كليون أقدرهم جميعاً وأعظمهم كفاية ، وأفصحهم لسانا ، وأكثرهم استهتاراً بالمبادئ الأخلاقية ، وأشدهم فساداً . ويصفه فلوطرخس بأنه « أول خطيب من الأثينيين خلع رداءه وضرب على فخذه وهو يخاطب الجماهير[١٢] » ؛ ويقول أرسطاطاليس إن كليون كان شديد الحرص على الظهور على المنصة فى ثياب العمال[١٣] . وكان على رأس

عدد كبير من الزعماء الشعبيين حكموا أثينة منذ مات پركليز إلى أن فقد الأثينيون استقلالهم يوم قيرونة Chaeronea (٣٣٥) .

وأثبت كليون كفايته عام ٤٢٥ حين حاصر الأسطول الأثيني جيشاً اسبارطياً فى جزيرة اسفكتيريا Sphacteria القريبة من پيلس Pylus المسينية . ولاح أنه لا يوجد قائد بحرى يستطيع الاستيلاء على الحصن ، فلما أن عهدت الجمعية إلى كليون الإشراف على الحصار (وكانت ترجو بعض الرجاء أن يقتل فى الهجوم عليه) ، أدهش الناس كلهم بتوجيه الهجوم بمهارة وشجاعة أجبرتا اللسدمونيين على الاستسلام على غير عادتهم . وأذل هذا الاستسلام اسبارطة فطلبت الصلح والتحالف مع أثينة نظير الإفراج عن أسراها ، ولكن كليون استطاع بفصاحته الخطابية أن يقنع الجمعية بأن ترفض هذا العرض وأن تواصل الحرب . وقويت سيطرته على الجماهير بعد أن عرض على الجمعية اقتراحاً أجازته من فورها يعفى الأثينيين فيما بعد من أداء الضرائب التى تتطلبها مواصلة الحرب ، على أن يؤخذ ما يلزمها من المال بزيادة الخراج الذى تؤديه المدن الداخلة فى نطاق الإمبراطورية (٤٢٤) . وكانت السياسة التى يسير عليها كليون فى هذه المدن ، كالسياسة التى يسير عليها فى أثينة ، هى أن يستولى من الأغنياء على أكبر قدر يجده عندهم من المال . ولما أن ثارت الطبقات العليا فى متلينى ، ونبذت الحكم الدمقراطى ، وأعلنت تحرر لسيوس من ولائها لأثينة (٤٢٩) ، اقترح كليون أن يقتل جميع الذكور البالغين من سكان المدينة العاصية . ووافقت الجمعية على هذا الاقتراح — ولعل الذين حضروا هذه الجلسة لم يكونوا سوى العدد القانونى الذى يصح أن تعقد بحضوره — وأرسلت سفينة تحمل أوامره بتنفيذه إلى پاكيز Pachcs القائد الأثينى الذى قمع الثورة . ولما أن ذاع نبأ هذا الأمر الوحشى فى أثينة دعا العقلاء المعتدلون إلى عقد اجتماع ثان للجمعية ، واستصدروا منها قراراً بإلغاء القرار السابق ، وأرسلوا سفينة أخرى أدركت پاكيز قبيل تنفيذ أمر

المذبحة . وبعث پاكيز إلى أثينة ألفاً من زعماء الثوار ، قتلوا عن آخرهم إجابة لاقتراح كليون وجرياً على سنة ذلك العصر[١٤] . وكفر كليون عن ذنبه بأن مات فى الميدان وهو يحارب البطل الاسپارطى براسيداس Brasidas الذى كان يستولى على المدن فى شمال بلاد اليونان الأصلية والخاضعة لأثينة أو المتحالفة معها مدينة فى إثر مدينة . وهذه الحرب هى التى خسر فيها توكيديدز منصبه البحرى و مسكنه فى أثينة من جراء تباطؤه فى إنقاذ أمفپوليس المدينة التى كانت تتحكم فى مناجم الذهب فى تراقية . وقتل براسيداس فى هذه الحرب نفسها ، فلم تجد اسپارطة زعيماً يستطيع مواجهة الهيلوتيين الذين كانوا يهددونها بالثورة فعرضت الصلح مرة أخرى على أثينة ، وانصاعت أثينة للمرة الأولى لنصيحة الزعيم الأبلركى فوقعت صلح نيشياس (٤٢١) . ولم تكتف المدن المتحاربة بأن تعلن انتهاء الحرب ، بل وقعت شروط حلف يستمر خمسين عاماً ، وتعهدت أثينة أن تخف لمساعدة اسپارطة إذا ما ثار عليها الهياوتيون[١٥] .

الفصل الرابع

ألقبيادس

واجتمعت ثلاثة عوامل حولت هذا العهد الذى أخذته المدن اليونانية على نفسها بأن تدوم المودة بينها خمسين عاماً كاملة إلى هدنة مؤقتة لم تدم إلا ست سنين . وهذه العوامل الثلاثة هى : الفساد الذى طرأ على السلم فجعله « حرباً بوسائل أخرى » ؛ وقيام ألقبيادس على رأس حزب ينادى بامتشاق الحسام ؛ ومحاولة أثينة الاستيلاء على المستعمرات الدورية فى صقلية ، ورفض حلفاء اسپارطة أن يوقعوا شروط الاتفاق مع أثينة ، وانشقوا عليها بعد أن ذهبت قوتها ، وحولوا ولاءهم إلى أثينة ، واحتفظ ألقبيادس فى أثينة بالسلم رسمياً ، ولكنه كان فى واقع الأمر يعد العدة لمحاربة اسپارطة ، وحشد المدن اليونانية الموالية لأثينة فى واقعة دارت رحاها عند منتينيا Mantinea (٤١٨) . وانتصرت اسپارطة فى المعركة ؛ وعقدت المدن اليونانية هدنة أخرى على الرغم منها .

وفى هذه الأثناء سيرت أثينة أسطولا إلى جزيرة ميلوس الدورية تطلب إليها أن تكون دولة خاضعة لسلطان الإمبراطورية الأثينية (٤١٦) ، ويقول توكيديدز — وأكبر الظن أن المؤرخ الذى فيه يخضع للفيلسوف السوفسطائى أو الطريد المنتقم — إن الرسل الأثينيين لم يبرروا اعتداءهم بأكثر من قولهم إن القوة هى الحق : « لقد أملت علينا الآلهة وعلمنا الناس أن هؤلاء وأولئك يحكمون أينما استطاعوا وفقاً لقانون محتوم متأصل فى طبيعتهم ، ولسنا نحن أول من سن هذا القانون أو عمل به ؛ لقد وجدناه قائماً من قبلنا ؛ وسنتركه قائماً سرمدياً من بعدنا ؛ وكل ما نستطيع أن نفعله أن نسير على سننه ، لأنا نعرف أنكم أنتم وكل من عداكم من الناس ستفعلون فعلنا إذا أوتيتم ما أوتينا من قوة »[١٦] . وأبى أهل

ميلوس أن يخضعوا وأعلنوا أنهم سيفوضون أمرهم إلى الآلهة ويضعون فيها ثقتهم . ولما أن وصلت بعدئذ إلى الأسطول الأثيني إمدادات لا قبل لهم بها استسلموا للغزاة الفاتحين بلا شرط ولا قيد . وأعدم الأثينيون كل من وقع فى أيديهم من الذكور البالغين ، وباعوا النساء والأطفال بيع الرقيق ، وأقطعوا الجزيرة لخمسمائة من المستعمرين الأثينيين . وابتهجت أثينة بهذا الفتح المبين ، وشرعت من ذلك الحين تبرهن ، بما مثل بين جدرانها من مآس حية ، على ذلك المبدأ الذى مثله كتابها على المسرح ، وهو أن الانتقام الإلهى يتعقب الانتصار الوقح .

وكان ألقبيادس ممن أيدوا فى الجمعية القرار القاضى بإعدام الذكور من أهل ميلوس[١٧] . وكان تأييده لكل اقتراح أيا كان نوعه يكفى فى الغالب لإقراره ، لأنه كان وقتئذ أقوى رجل فى أثينة ، تعجب به لفصاحة لسانه ، ونبهاء طلعته ، وعبقريته المتعددة الكفايات ، بل تعجب به أيضاً لعيوبه وجرائمه . وكان أبوه أقلينياس Cleinias الثرى قد قتل فى واقعة كورونيا Coronea ، وكانت أمه وهى القيمونية Alemaeomid تمت بالقرابة إلى پركليز ، قد أقنعت ذلك السياسى أن يربى ألقبيادس فى منزله . وكان الغلام مشاكساً ، ولكنه ذكى شجاع ، حارب وهو فى سن العشرين بجانب سقراط فى پوتيديا Potidaea ، وحارب فى السادسة والعشرين من عمره فى واقعة دليوم Delium (٤٢٤) . ويبدو أن الفيلسوف كان يحس بعطف قوى على الغلام ، وأنه رده إلى الفضيلة ، كما يقول فلوطرخس ، بألفاظ ، « بلغ من تأثيرها فى ألقبيادس أن استدرت الدمع من عينيه ، وأقلقت باله ، ولكنه مع ذلك كان يسلم نفسه أحياناً للمتلقين ، حين كانوا يعرضون عليه ألواناً من الملاذ ، فيهجر سقراط ، ويأخذ الفيلسوف فى مطاردته كأنه عبد آبق »[١٨] .

وكانت بديهة الشاب الوقادة وعجونه حديث الناس فى أثينة وموضع دهشتهم وإعجابهم . ولما أن عاب عليه پركليز تكبره واستبداده برأيه بقوله إنه لم يفعل فعله هو مع أنه هو الأخر كان زلق اللسان فى صباه ، رد عليه ألقبيادس

بقوله : « أشد ما آسف له أنني لم أعرفك حين كان عقلك فى عنفوانه »[١٩] . وأراد مرة أن يرد على تحدى أحد رفاقه المتهورين الصخابين فصفع رجلا من أغنى الأثينيين وأشدهم بطشاً يدعى هيپونكس Hipponicus على وجهه ، ثم دخل فى اليوم الثانى بيت ذلك العظيم ، وخلع ملابسه ، ورجا هيپونكس أن يضربه بالسوط عقاباً له على فعلته . وتأثر الشيخ بفعل الشاب فزوجه بابنته هپريتى ومهرها بعشر وزنات ، وأقنعه ألقبيادس بأن يضاعف المهر وأنفق معظمه على نفسه ، وعاش عيشة بلغت من الترف درجة لم تعرف أثينة مثلها من قبل . فقد ملأ بيته بالأثاث الثمين ، واستخدم الفنانين فى رسم الصور على الحدران ، وجمع طائفة من جياد السباق ، فاز بها مراراً فى سباق المركبات فى أولمپيا . وقد فازت خيله فى إحدى هذه المباريات بالجوائز الأولى والثانية والرابعة فما كان منه إلا أن أولم وليمة لجميع أعضاء الجمعية[٢٠] . وكان فى بعض الأحيان يعد السفن ويؤدى نفقات الممثلين من ماله الخاص ، وإذا ما طلبت الدولة تبرعات للحرب من أبنائها كان هو أكبر المتبرعين .

ولم يكن ألقبيادس يتقيد بواعز من ضمير أو عرف أو بخوف ، ولهذا كان يعبث فى صباه وكهولته عبثاً بهيمياً ، وكأن أثينة بقضها وقضيضها كانت تستمتع معه بسعادته . وكان يلثغ قليلا فى نطقه تلثغا بلغ من سحره أن أصبح التلثغ الطراز الشائع بين شباب أثينة العصريين ، واحتدى مرة طرازاً جديداً من الأحذية ، فلم يلبث شباب المدينة الأثريآء المتأنقون أن لبسوا أحذية ألقبيادس ؛ وقد خرج على مائة قانون ، وأساء إلى مائة رجل ، ولكن أحداً لم يجرؤ على مقاضاته . وقد بلغ من حب السرارى له أنه نقش على درعه الذهبى صورة لإله الحب وإلى جانبه صاعقة كأنه يعلن بذلك انتصاراته فى الحب[٢١] ، وصبرت زوجته على خياناته صبر الكرام ، فلما تمادى فيها عادت إلى منزل أبيها وأخذت تستعد لمقاضاته طلباً للطلاق ، ولما ظهرت أمام الأركون ، احتضنها ألقبيادس ، وسار بها إلى منزله مخترقاً السوق

العامة دون أن يجرؤ إنسان على اعتراضه فلم يسعها والحالة هذه إلا أن تطلق له العنان ، وأن تقنع منه بفتات حبه ، ولكن موتها المبكر يوحى بأنها ماتت كسيرة القلب بسبب خياناته الزوجية .

ولما أن دخل ميدان السياسة بعد موت پركليز لم يجد فيه إلا منافساً واحداً له ، هو نيشياس الثرى التقى . ولكن نيشياس كان ضالعاً مع طبقة الأشراف جانحاً للسلم ، ومن أجل هذا شرع ألقبيادس يخص بعطفه طبقات التجار ، ويدعو إلى النزعة الاستعمارية دعوة أثارت كبرياء الأثينيين . وكان صلح نيشياس مشيناً فى نظره لأنه يحمل اسم منافسه . ولما اختير فى عام ٥٢٠ قائداً من عشرة قواد بدأ يضع تلك الخطط الطموحة التى قذفت بأثينة مرة أخرى فى معمعان القتال ، ولما أن هتفت له الجمعية ابتهج لهتافها تيمن Timon كاره المجتمع وتنبأ بما سوف يحل بها من الفواجع[٢٢].

الفصل الخامس

المغامرة الصقلية

كان خيال ألقبيادس هو الذى أفسد عمل پركليز . ذلك أن أثينة قد انتعشت بعد ما حل بها من كوارث الحرب ، وأخذت التجارة تدر عليها ثروة جزائر بحر إيجة . لكن القانون الطبيعى الذى يخضع له كل كائن حى هو قانون النماء الذاتى ؛ فأما المطامع والإمبراطوريات فلا تقنع أبداً بما تبلغ ؛ ولا تقف أبداً عند حد . وكان ألقبيادس يطمع فى أن يبنى لأثينة إمبراطورية جديدة فى مدائن إيطاليا وصقلية الغنية ، حيث تستطيع أن تجد الغلال ، والمواد ، والرجال ، وحيث تستطيع أن تسيطر على موارد الطعام ' الپلوپونيز ، وتضاعف الخراج الذى كان يوشك أن يجعلها أعظم المدن اليونانية : ولم يكن فى وسع أية مدينة أن تنافسها غير سرقوصة ، ولم تكن هى تطيق التفكير فى هذه المنافسة ، وكانت ترى أنها إن استولت على سرقوصة خضع لسلطانها جميع حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى ، ونالت أثينة من المجد ما لم يحلم به پركليز نفسه :

وحدث فى عام ٤٢٧ أن حذت صقلية حذو بلاد اليونان الأصلية فانقسمت إلى معسكرين متنازعين ، تتزعم أحدهما سرقوصة الدورية ، وتتزعم الأخرى ليونتينى Leontini الأيونية . وأرسلت ليونتينى غورغياس إلى أثينة يستنجدها ، ولكن أثينة كانت وقتئذ أضعف من أن تغيث مستغيثاً .

وفى عام ٤١٦ أرسلت سجستا رسلا إلى أثينة يبلغونها أن سرقوصة تعد العدة لتخضع صقلية كلها ، وتفرض عليها حكومة دُورية ، وتمد اسپارطة بالمؤن والأموال إذا ما تجددت الحرب الكبرى . واغتنم ألقبيادس هذه الفرصة السانحة وقال إن اليونان فى صقلية منقسمون على أنفسهم انقساماً لا يرجى من ورائه لهم

خير ، وإن كل مدينة فيها منقسمة على نفسها ، وإن من أيسر الأمور وبقليل من الشجاعة أن تضم الجزيرة كلها إلى الإمبراطورية ، وإن من أوجب الواجبات أن تظل الإمبراطورية تتسع رقعتها ، وإلا فلا مناص لها من أن تبدأ فى الاضمحلال ، وإن الشعب الذى يريد أن تكون له إمبراطورية فى حاجة إلى مناوشة من آن إلى آن لتدريبه على أساليب حكم الشعوب(٢٣) . وقام نيشياس فى الجمعية يعارضه ويطلب إليها ألا تستمع لرجل يغريه بنخه بالإقدام على مشروعات التوسع الخيالية ، ولكن بلاغة ألقبيادس وخيال شعب تحلل الآن تحللا خطيراً من المبادئ الأخلاقية تغلباً على حجج نيشياس ، وأعلنت الجمعية الحرب على سرقوصة ووافقت على الأموال اللازمة لإعداد أسطول ضخم لغزوها ، وكأنما أرادت أن تجعل هزيمة أثينة مؤكدة فوزعت القيادة بين ألقبيادس ونيشياس .

وسارت الاستعدادات على قدم وساق مدفوعة بالحماسة الشديدة التى هى من أخص خصائص الحرب ؛ وأخذ الأهلون ينتظرون سفر الأسطول ليحتفلوا به احتفالا وطنياً عظيما . ولكن حدث قبل اليوم المحدد لسفره بأيام قلائل حادث عجيب هز مشاعر المدينة التى كانت قد فقدت كثيراً من تقواها وإن لم تفقد شيئاً من خرافاتها وأوهامها . وتفصيل ذلك أن أشخاصا مجهولين تسللوا فى جنح الظلام وحطموا أنوف تماثيل الإله هرمس ، وآذانها ، وأعضاء تذكيرها . وكانت هذه التماثيل قائمة أمام المبانى العامة وكثير من المساكن الخاصة رمزاً للإخصاب ووقاية لها من كل سوء . وجاء باحث متحمس يفضى إلى القوم بشهادة لا سند لها منقولة عن جماعة من الغرباء والأرقاء يقولون فيها إن هذا العبث من فعل طائفة من أنصار ألقبيادس السكارى بزعامة ألقبيادس نفسه . واحتج القائد الشاب على هذا القول وحاول أن يبرئ نفسه منه ، وطلب أن يقدم إلى المحاكمة على الفور ، حتى يدان أو يبرأ قبل سفر الأسطول . ولكن أعداءه الذين كانوا يتوقعون صدور الحكم ببراءته ، أفلحوا فى تأجيل المحاكمة : وعلى هذا أبحر الأسطول

العظيم فى عام ٤١٥ وقد عقد لواؤه لداعية من دعاة السلم خوار القلب يبغض الحرب ، ورجل جرىء من أنصار الحرب ، يقف توزيع القيادة وخشية البحارة أن يكون قد استحق غضب الآلهة ، حائلا بين عبقريته وبين الجهود التى لا بد من بذلها لنيل النصر . ولم تكد تمضى على سفر الأسطول بضعة أيام حتى وردت أدلة كالأدلة السابقة لا سند لها يؤيدها ولا يمكن الوثوق بها تقول إن ألقبيادس وأصدقاءه قد اشتركوا فى تمثيل الطقوس الإلوريتية الخفية تمثيلا هزليا ساخراً . وأسرعت الجمعية تدفعها الجماهير الهائجة الغاضبة ، فأرسلت السفينة السريعة سلاميناً Salaminia للحاق بألقبيادس وإعادته إلى أثينة ليقدم فيها للمحاكمة . وقبل ألقبيادس الدعوة ، وانتقل إلى سلاميناً ؛ ولما أن رست السفينة عند ثوربای نزل إلى البر خفية وفر هاربا . فلما أن غلبت الجمعية الأثينية على أمرها أصدرت حكمها بنفيه ومصادرة جميع أملاكه ، وإعدامه إذا ما استطاع الأثينيون القبض عليه . واستولى عليه الحزن إذ رأى أن مشروعاته التى تهدف إلى مجد أثينة وتوطيد دعائم إمبراطوريتها قد قضى عليها من جراء حكم لا يزال يعـــده ظالما ، فلجأ إلى البلوپونيز ، وحضر إحدى جلسات الجمعية الاسپارطية ، وعرض أن يساعد إسبارطة على هزيمة أثينة وإقامة حكومة أرستقراطية فيها . ويقول توكيديدز على لسانه : « أما الدمقراطية فإن العقلاء منا يعرفون حقيقة أمرها ، ولست أنا أقل علما بذلك من أى واحد منهم ، لأن عندى من أسباب الشكوى منها أكثر مما عندهم ، ولكنى لا أجد شيئاً جديداً أذكره عن هذا السخف المتأصل فيها »[٢٤] . وأشار على الاسپارطيين أن يسيروا أسطولا لمساعدة مرقوصة ، وجيشا للاستيلاء على دسيليا Decelcia — وهى مدينة فى أتكا إذا استولت عليها اسپارطة تحكمت عسكرياً فى أتكا بأجمعها ما عدا أثينة ، فتمنع بذلك مناجم الفضة فى لوريوم أن تمد أثينة بالأموال التى تمكنها من مقاومة الغزو ، حتى إذا

رأت المدن الخاضعة لأثينة أن هزيمتها محققة امتنعت عن أداء الجزية . وعملت اسپارطة بهذه النصيحة .

وظهرت قوة عزيمته حين نبذ ما تعوده فى حياة الترف وعاش كما يعيش الاسپارطيون متقشفاً ، مقتصداً ، متحفظاً ، يأكل غليظ الطعام ، ويلبس خشن الثياب ، ويسير حافى القدمين ، ويستحم فى نهر اليوروتاس Eurotas صيفاً وشتاء ، ويطيع قوانين لسدمونيا وعاداتها عن وفاء وإخلاص . لكن طلعته البهية ، وجاذبيته رغم هذا كله أفسدتا عليه خططه ، فقد هامت الملكة بحبه ، وحملت منه بولد ، وأسرّت إلى أصدقائها فى زهو وفخار أنه أبوه . واعتذر هو لأصدقائه عن فعلته هذه بأنه لم يستطع أن يقاوم رغبته فى أن يكون ملوك لكونيا من نسله . وجاء الملك أجيس إلى بلده ، وكان متغيباً عنه مع جيشه . وعلم ألقبيادس بذلك فحصل على منصب فى قسم من أسطول اسپارطة كان مسافراً إلى آسية . وتبرأ الملك من الطفل ؛ وبعث بأوامر سرية تقضى باغتيال ألقبيادس ، ولكن أصدقاءه حذروه من هذا ، ففر وانضم لطشفرن Tissaphernes قائد الأسطول الفارسى فى سرديس .

وكان نيشياس يواجه فى الطرف الآخر من ميدان القتال مقاومة لا يستطيع الغلب عليها إلا عبقرية ألقبيادس العسكرية ومهارته فى حبك الدسائس وتدبير المؤامرات . ذلك أن صقلية بأجمعها تقريباً خفت لمساعدة سرقوصة . وفى عام ٤١٤ استطاع أسطول صقلية بمساعدة أسطول اسپارطى يقوده جيلبس Gylippus أن يحصر السفن الأثينية الحربية فى ميناء سرقوصة ويمنع عنها الطعام . وفقدت هذه السفن آخر فرصة أتيحت لها للخروج من هذا المأزق حين خسف القمر فارتاع لذلك نيشياس وكثيرون من جنوده وحملهم هذا الروع على أن ينتظروا فرصة أخرى أكثر من هذه إرضاء للآلهة . لكنهم فى اليوم الثانى وجدوا أنفسهم يحيط بهم أعداؤهم فاضطروا كارهين

أن يخوضوا المعركة ، ومنوا بالهزيمة فى البحر أولا ثم فى البر بعدئذ . وحارب نيشياس رغم ضعفه ومرضه ببسالة ، ولكنه أسلم نفسه آخر الأمر لرحمة السرقوصيين ، فلم يكن منهم إلا أن أعدموه ؛ ثم أرسل من بقى على قيد الحياة من الأثينيين ، وكانوا كلهم من طبقة المواطنين ، إلى العمل فى مناجم صقلية ، حيث ذاقوا طعم الحياة التى ظل يحياها عدة أجيال أولئك الذين ظلوا عدة قرون يكدحون فى استخراج الفضة من مناجم لوريوم وهلكوا فيها كما هلك هؤلاء .

obeikandl.com

الفصل السادس

انتصار اسبارطة

وقضت هذه الكارثة على روح أثينة المعنوية ، فقد هلك أو استرق فيها نصف مواطنيها تقريباً ، وترمل نصف هذه الطبقة من النساء ، وتيتم نصف الأطفال . ولم يكد يبقى لها شيء من الأموال التى جمعها پركليز فى خزائنها ، وكان عام آخر كفيلا باستنفاد كل درهم فيها . وحسبت المدن الخاضعة لأثينة أنها ساقطة لا محالة فامتنعت عن أداء الجزية ، وتخلف عنها معظم حليفاتها وانضمت الكثيرات منهن إلى اسپارطة . وفى عام ٤١٣ ادعت اسپارطة أن أثينة قد خرجت أكثر من مرة شروط صلح « الخمسين عاماً » فأعلنت إليها الحرب من جديد ، واستولى اللسديمونيون فى هذه المرة على ديسيليا ، وحاولوا دون وصول الطعام إليها من عوبية والفضة من لوريوم . وتمرد الأرقاء الذين كانوا يعملون فى هذه المناجم ، وانضموا بكامل عددهم البالغ عشرين ألف رجل إلى الاسپارطيين . وبعثت سرقوصة جيشاً لينضم إلى المهاجمين ، ورأى ملك الفرس الفرصة سانحة ليثأر لنفسه من هزيمة مرثون وسلاميس ، فأمد بالمال الأسطول الاسپارطى الناشئ ، بعد أن اتفق مع اسپارطة ذلك الاتفاق المشين ، وهو أن تساعد الفرس على أن يستعيدوا سيادتهم على مدائن أيونيا اليونانية(٢٥) .

ومما يدل على شجاعة الدمقراطية الأثينية وما كان فيها من حية أن أثينة استطاعت أن تقاوم أعداءها عشر سنين أخرى ، فقد نظمت حكومتها تنظيما راعت فيه قواعد الاقتصاد ، وجدت فى جمع الضرائب وفرض الإعانات لبناء أسطول جديد ، فلم تكد تمضى سنة على هزيمتها فى سرقوصة

حتى أصبحت متأهبة لأن تنازع اسپارطة سيادتها الجديدة على البحار . ولما كاد انتعاش أثينة يبدو أمراً مؤكداً نظم الحزب الأرستقراطى ثورة فى البلاد ، واستولى على أزمة الحكم وأنشأ مجلساً أعلى قوامه أربعمائة ألف (٤١١) . ولم يكن أعضاء هذا الحزب فى يوم من الأيام فى جانب الحرب ، بل إنهم كانوا فى واقع الأمر يودون لو انتصرت اسپارطة على أثينة لتنتعش فيها الأرستقراطية : واستولى الرعب على الجمعية بعد أن اغتيل كثيرون من زعماء الدمقراطية فاقترعت على أن تكفى نفسها بنفسها . وناصر الأغنياء الثورة لأنهم رأوا فيها الوسيلة الوحيدة للقضاء على حرب الطبقات التى وحدت صفوف الطبقات المتماثلة فى أثينة واسپارطة ، كما وحد كفاح الطبقات الوسطى ضد الأرستقراطية أحزاب الأحرار فى إنجلترا وأمريكا إبان الثورة الأمريكية . وما كاد الأرستقراطيون يستولون على أزمة الحكم حتى أرسلوا الرسل لعقد الصلح مع اسپارطة ، وأخذوا يمهدون السبيل سراً لدخول الجيش الإسپارطى فى أثينة . وفى هذا الوقت تولى ثرمنيز ، وهو زعيم حزب وسط من الأرستقراط المعتدلين ، ثورة مضادة للثورة السالفة الذكر ، واستبدل بمجلس الأربعمائة الذى تولى الحكم نحو أربعة أشهر مجلساً آخر من خمسمائة عضو (٤١١) ، واستمتعت أثينة فترة قصيرة بحكم دمقراطى أرستقراطى مشترك كان فى نظر توكيديدز وأرسطاطاليس[٣٦] (وكلاهما من الأشراف) خير ما رأته أثينة بعد عهد صولون من أنظمة الحكم وأكثرها عدلا . ولكن الثورة الثانية نسيت ، كما نسيت الثورة الأولى ، أن طعام أثينة وحياتها نفسها يعتمدان على أسطولها ، الذى حرمت الثورتان رجاله عدا قليلين من زعمائهم من حقوقهم السياسية . وثارت ثائرة البحارة حين سمعوا هذا الخبر ، فأعلنوا أنهم سيحاصرون أثينة إن لم تعد إليها حكومتها الدمقراطية . وانتظر الأرستقراطيون قدوم الجيش الاسپارطى ولكن الاسپارطيين تباطأوا شأنهم فى كل مرة ، وولى الحكام الجدد الأدبار ، وأعاد الدمقراطيون المنتصرون الدستور القديم (٤١١) .

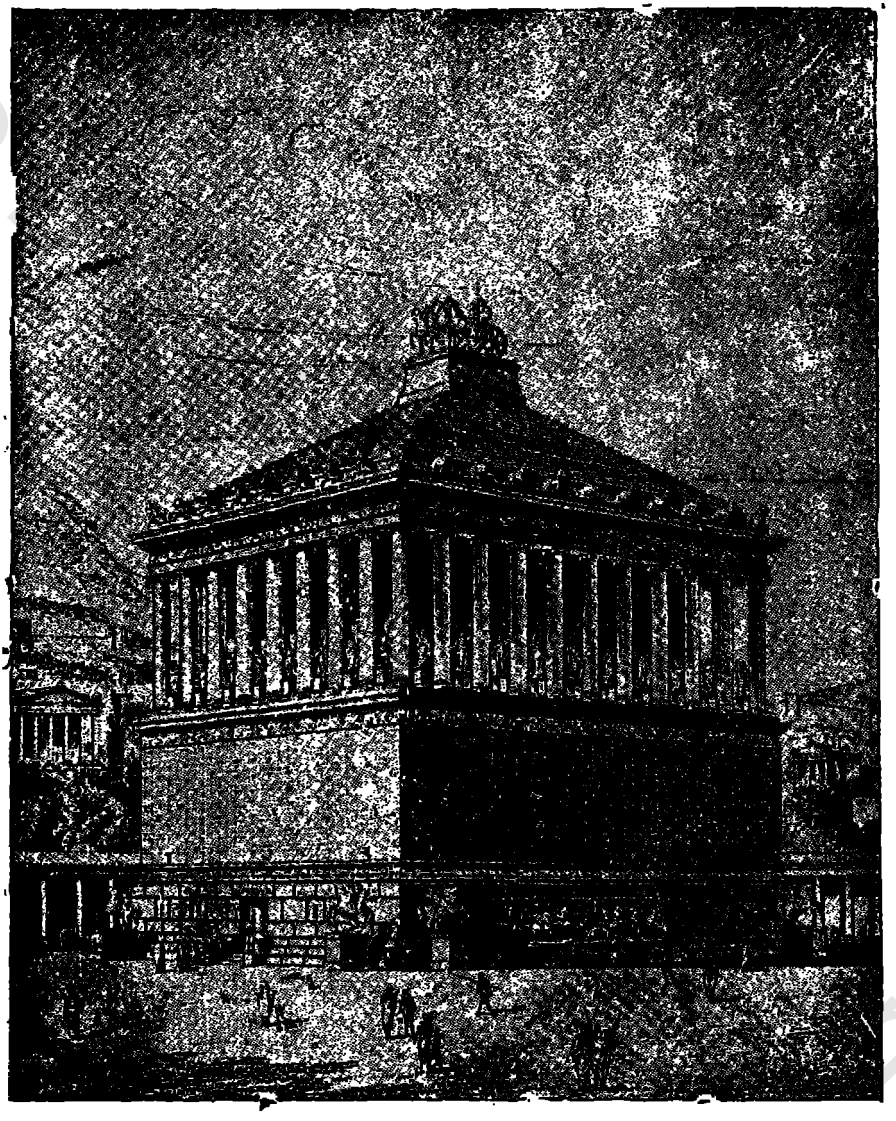

(شکل ۳۹) ضریح هلکرنسس

وكان ألقبيادس قد أيد الثورة الأرجركية سراً ، وكان يرجو أن تمهد السبيل لعودته إلى أثينة ، فلما عادت الدمقراطية إلى سابق عهدها استدعته إليها ووعدته بالعفو عنه ؛ ولعلها كانت تجهل دسائسه ، ولكنها كانت تعرف بلا ريب سيئات الحكومات التى توالت عليها بعد نفيه منها . غير أن ألقبيادس أرجأ عودته ظافراً إلى أثينة ، وتولى قيادة الأسطول المرابط عند ساموس ، وأقدم على العمل بسرعة ونجاح سعدت بهما أثينة فترة قصيرة من الزمان . فقد اجتاز الهلسپنت مسرعا ، والتقى بأسطول اسپارطى عند سزكس Cyzicus ودمره تدميراً تاماً تاماً (٤١٠) . ثم حاصر خلقيدون وبيزنطية حصاراً دام عاما كاملا استولى بعده عليهما وأعاد بذلك إلى أثينة سيطرتها على مواد الطعام المارة بالبسفور . ثم عاد بأسطوله نحو الجنوب فالتقى بعمارة اسپارطة أخرى قرب جزيرة أندروس وهزمها دون عناء . ورجع بعدئذ إلى أثينة (٤٠٧) ، فحياه أهلها على بكرة أبيهم أحسن تحية واستقبلوه أحسن استقبال . لقد نسوا وقتئذ ذنوبه ولم يذكروا إلا عبقريته وحاجة أثينة الشديدة إلى قائد قدير مثله[٢٧] . ولكن أثينة وهى تحتفل بانتصاراته لم ترسل إليه المال الذى يؤدى به رواتب بحارة أسطوله . وهنا أيضا قضى على ألقبياس عدم استمساكه بالمبادئ الأخلاقية الكريمة . ذلك أنه ترك الجزء الأكبر من أسطوله عند نوتيوم Notium (قرب إفسوس) تحت إمرة رجل يدعى أنتيكس Antiochus ، وأمره أن يبقى فى الميناء وألا يشتبك فى القتال مهما تكن الأسباب ، ثم سار هو ومعه عدد قليل من السفن إلى كاريا Caria ليجمع منها المال إلى رجاله بأساليب لا يرضى عنها القانون . وطمع أنتيكس فى الشهرة فغادر الميناء ، وتحدى أسطولا اسپارطيا صغيراً بقيادة ليسندر Lysander فقبل هذا القائد التحدى ، وقتل أنتيكس بيده وأغرق معظم سفائن الأسطول الأثينى أو استولى عليها (٤٠٧) . ولما علمت أثينة بهذه الفاجعة ، وكان لها فى الجمعية رد فعل سريع ، فقد اجتمعت من فورها ووجهت اللوم إلى ألقبيادس

لتركه أسطوله وعزلته من قيادته . وأصبح ألقبيادس يخشى أثينة واسبارطة على السواء ، فلم ير بدأ من الالتجاء إلى بيثينيا Bithynia .

وأمرت أثينة فى يأسها أن يصهر ما فى التماثيل والقرابين القائمة على الأكربوليس من ذهب وفضة ، وأن ينفق هذا كله فى بناء أسطول جديد من مائة وخمسين سفينة ذات ثلاث صفوف من المجاديف ، ثم قررت أن تعتق الأرقاء ، وتمنح حقوق المواطنية للغرباء ، الذين يدافعون عن المدينة . وهزم الأسطول الجديد عمارة اسبارطية بالقرب من جزائر أرجنوسى Arginusae (جنوب لسيوس) فى عام ٤٠٦ ، واهتزت مشاعر أثينة مرة أخرى بنشوة الظفر ، ولكن الجمعية استشاطت غضباً حين سمعت أن قوادها(*) قد تركوا بحارة خمس وعشرين سفينة من السفن التى أغرقها العدو يموتون غرقاً على أثر عاصفة بحرية . ونادى المتحمسون أن أرواح هؤلاء الغرقى الذين لم يدفنوا طبقاً للمراسم المرعية ، ستطوف قلقة حوالى العالم ؛ واتهموا الباقين على قيد الحياة بإهمالهم إنقاذ الغرقى ، واقترحوا أن يحكم بالقتل على ثمانية من القواد المنتصرين (ومنهم ابن پركليز من أسبازيا) . وتصادف أن كان سقراط عضواً فى لجنة الرياسة فى ذلك اليوم فأبى أن يعرض هذا الاقتراح على الجمعية . ولكنه عرض ووافقت عليه على الرغم منه ، ونفذ الحكم بنفس السرعة التى صودق بها عليه . وما هى إلا أيام قلائل حتى ندمت الجمعية على فعلتها ، وحكمت بالإعدام على من أقنعوها بقتل القواد . وفى هذه الأثناء عرض الاسبارطيون ، بعد أن أوهنتهم الهزيمة ، أن يعقدوا الصلح مرة أخرى ، ولكن الجمعية الأثينية رفضت هذا العرض متأثرة ببلاغة كليوفون المخمور(٢٨) .

واتجه الأسطول الأثينى بعدئذ نحو الشمال ، تحت إمرة قواد من الطبقة

(*) كان لفظ استراتجوس Strategos يطلق على قواد الجيش والأسطول على السواء .

الثانية ، ليلاقى الاسپارطيين بقيادة ليسندر فى بحر مرمرة . ورأى ألقبيادس من مخبئه بين التلال أن السفن الأثينية قد اتخذت لها موضعاً شديد الخطورة عند إيجسپتامای Aegospotami قرب لمپسكس Lampascus ، فما كان منه إلا أن خاطر بحياته ونزل إلى الشاطئ على ظهر جواده ، ونصح أمراء البحر الأثينيين أن يبحثوا لهم عن موضع أقل تعرضاً للخطر من موضعهم ؛ ولكنهم لم يثقوا بنصحه ولم يعملوا به ، وذكروه بأنه لم يعد له شأن بالقيادة . وفى اليوم الثانى حدثت المعركة الفاصلة ، وأغرقت فيها مائتان من سفن الأسطول الأثينى المائتين والثمان ، أو استولى عليها العدو ، وأمر ليسند بقتل ثلاثة آلاف من الأسرى الأثينيين(٢٩) . وترامى إلى ألقبيادس أن ليسندر قد أمر بقتله ، ففر إلى فريجيا مع القائد الفارسى فرنبزوس Pharnapazus الذى وهبه قصراً وحظية . ولكن ملك فارس أمر فرنبزوس بأن يقتل ضيفه عملا بنصيحة ليسندر . وحاصر اثنان من القتلة ألقبيادس فى قصره ، وأشعلا النار فيه ، فخرج منه عاريا يائسا ، يريد أن يقاتل دفاعا عن حياته ، ولكن سهام مهاجميه وحربتيهما اخترقت جسمه قبل أن يمسهما سيفه فقضى نحبه فى السادسة والأربعين من عمره ؛ وكان أعظم العباقرة فى تاريخ اليونان العسكرى ، كما كان إخفاقه أعظم الفواجع فى هذا التاريخ .

وأصبح ليسندر بعدئذ صاحب السلطان المطلق فى بحر إيجة ، فأخذ يتنقل بأسطوله من مدينة إلى مدينة ، يقضى على الدمقراطيات ويقيم مكانها حكومات ألجركية خاضعة لاسپارطة ، ثم دخل ثغر بيرية من غير أن يلقى مقاومة ، وضرب الحصار على أثينة ، وقاومه الأثينيون ببسالتهم المعهودة ، ولكن ما كان لديهم من الطعام لم يكفهم أكثر من ثلاثة أشهر ، وامتلأت طرقات المدينة بالموتى أو المحتضرين . وعرض ليسندر على أثينة شروطاً للصلح مذلة ولكنها رحيمة . فقد قال إنه لا يريد أن يخرب مدينة أدت فى الماضى خدمات مشرفة إلى بلاد اليونان ، ولن يريد فوق ذلك أن يستعبد أهلها ،

ولكنه طلب دك الأسوار الطويلة واستدعاء الأبلركيين المنفيين ، وتسليم جميع ما كان باقياً من أسطولها عدا ثمان سفن ، وأن تقطع على نفسها عهداً بأن تساعد اسپارطة مساعدة جدية فى كل حرب تخوض غمارها فى المستقبل . واحتجت أثينة على هذه الشروط ولكنها قبلتها صاغرة .

واستولى الأبلركيون العائدون بزعامة أفرتياس وثرمنيز على أزمة الحكم بتأييد ليسندر ، وألفوا مجلساً من ثلاثين عضواً ليحكم أثينة (٤٠٤) . ولم يفد هؤلاء العائدون من دروس الماضى شيئاً ، كما لم يفد منها آل بربون Bourbon بعد أن عادوا إلى حكم فرنسا . فقد صادروا أموال كثيرين من أغنياء التجار ، وأوغروا عليهم صدورهم . ونهبوا أموال الهياكل ، وباعوا بثلاث وزنات أرصفة پيرية التى كلفت أثينة ألف وزنة(٣٠) ، ونفوا من المدينة خمسة آلاف من الدمقراطيين ، وأعدموا ألفاً وخمسمائة آخرين ؛ وقتلوا جميع الأثينيين الذين لم يكونوا هم راضين عنهم لأسباب سياسية أو شخصية ؛ وقضوا على حرية التعليم والاجتماع ، والكلام ؛ وحرم أقريتياس على سقراط ، وقد كان يوماً ما تلميذ هذا الفيلسوف ، أن يواصل أحاديثه العامة . وأراد الثلاثون أن يعرضوا الفيلسوف للشبهات ويضموه إلى قضيتهم فأمروه هو وأربعة غيره أن يقبضوا على ليون Leon الدمقراطى ، فأطاع الأربعة أمرهم ورفضه سقراط .

وازدادت جرائم الأبلركيين وتضاعفت إلى حد أنسى الأثينيين أوزار الدمقراطية ، فأخذ عدد من يريدون التخلص من هذا الطغيان الدموى ، ومن بينهم كثيرون من ذوى اليسار ؛ يزداد يوماً بعد يوم ؛ ولما أن اقترب من پيرية ألف من الدمقراطيين المدججين بالسلاح بقيادة ثرازيبولس Thrasypulus لم يكد الثلاثون يجدون من يدافع عنهم غير شيعتهم الأقربين . ونظم أقريتياس جيشاً صغيراً ، وخرج هو إلى ميدان القتال فهزم وقتل . ودخل ثرازيبولس

أثينة وأعاد إليها الحكم الدمقراطى (٤٠٣) . وسارت الجمعية بإرشاده سيراً معتدلا لم تألفه من قبل ، فلم تحكم بالإعدام إلا على أكابر من بقوا على قيد الحياة من زعماء الثورة ، وسمحت لهم بالنجاة من هذا الحكم بالخروج من المدينة ؛ ثم أعلنت العفو العام عن جميع من ساعد الأجركيين من غير هؤلاء الزعماء ، بل إنها ردت إلى اسپارطة المائة الوزنة التى أعارها حكامها إلى الثلاثين[٣١] . وأعادت هذه الأعمال المنطوية على كثير من الإنسانية وحسن السياسة إلى أثينة ذلك السلام الذى حرمت منه جيل من الزمان .

الفصل السابع

موت سقراط

من أغرب الأشياء أن العمل القاسى الوحيد الذى ارتكبته الدمقراطية بعد عودتها ، قد ارتكبته مع فيلسوف طاعن فى السن تحول سنوه السبعون بينه وبين القيام بأى عمـــل يضر الدولة . ولكن كان بين زعماء الحزب المنتصر ذاك الأنيتوس Anytus الذى هدد قبل عدة سنين من ذلك الوقت بأن ينتقم لنفسه من سقراط لبعض إهانات لحقته من جدله ، ولأن الفيلسوف « أفسد » ابنه . وكان أنيتوس هذا رجلا صالحاً ، حارب ببسالة تحت إمرة ثرازيبولس ، وأنقذ حياة بعض من أسرهم جنوده من الأجركيين . وكانت له يد فى إصدار العفو العام ؛ وسمح للذين ابتاعوا أملاكهم ، بعد أن صادر الثلاثون الأملاك ، أن يتبقوها لأنفسهم لا ينازعهم فيها منازع . ولكنه لم يحتفظ بهذه الصفات الكريمة فى معاملته لسقراط . فهو لم ينس أن ابنه بقى مع سقراط وصار سكيراً عربيداً بعد أن ذهب هو إلى منفاه[٣٢] ؛ ولم يخفف من حقده على الفيلسوف أن سقراط أبى أن يطيع الثلاثين وأعلن أن أقريتياس حاكم ظالم (هذا إذا كان لنا أن نصدق رواية أكسانوفون عن هذا الحادث[١٣]) . فقد بدأ لأنيتوس أن تأثير سقراط فى الأخلاق وفى السياسة أسوأ من تأثير أى سوفسطائى آخر ، وأنه يقوض دعائم العقيدة الدينية التى كانت تستند إليها الأخلاق ، وأن انتقاداته الدائمة كانت تضعف إيمان الأثينيين المتعلمين فى الأنظمة الدمقراطية[*] . وبدا لأنيتوس أن من الخير أن يخرج سقراط من أثينة أو أن يموت .

(*) لقد انقطع أقريتياس وأتباعه عن سقراط فى أوائل عهده بالتدريس لأنهما لم يقبلا القيود التى كان يدعو إليها .

ووجّه الاتهام إلى سقراط أنيتوس ، وملاتوس ، وليقون فى عام ٣٩٩ وكان نصه : « أن سقراط مذنب عام لأنه لا يعترف بالآلهة التى تعترف بها الدولة ، بل يدخل فيها كائنات شيطانية » (الديمونيون السقراطية) ؛ « وأنه مذنب كذلك لأنه أفسد الشباب(*)(٣٥) » . وجرت المحاكمة أمام محكمة شعبية (ديكاستريون Dikasterion) مؤلفة من حوالى خمسمائة من المواطنين معظمهم ممن لم ينالوا قسطاً كبيراً من التعليم . وليس لدينا وسيلة نعرف بها ما فى رواية أفلاطون وأكسانوفون الخاصة بدفاع سقراط عن نفسه من دقة ؛ وكل ما نعرفه محققاً أن أفلاطون شهد المحاكمة بنفسه(٣٧) ، وأن روايته عن اعتذار سقراط تتفق فى كثير من المواضع مع رواية أكسانوفون . يقول أفلاطون إن سقراط قد أكد أنه يؤمن بألوهية الشمس والقمر نفسيهما . « تقولون أولا إنى لا أومن بالآلهة ثم تقولون بعدئذ إنى أومن بإنصاف الآلهة... إن مثلكم فى هذا كمثل من يؤكد وجـود البغال ثم ينكر وجود الخيل والحمير(٣٨) » ثم أشار وهو مكتئب حزين إلى ما كان لمجاء أرسطوفان من أثر فعال :

« لقد اتهمنى كثيرون ، اتهمونى فى الزمن القديم ، وظلت تهمهم الكاذبة تطاردنى كثيراً من السنين ؛ وأنا أخشاهم أكثر مما أخشى أنيتوس ورفاقه . . . لأنهم بدءوا يتهموننى وأنتم أطفال ، واستحوذوا بأكاذيبهم على عقولكم ، إذ حدثوكم عن شخص يسمى سقراط ، وهو رجل حكيم ، يفكر فى السموات العلا ، ويفحص عن الأرض من تحتنا ، ويجعل أسوأ الأسباب تبدو للعين كأنها أحسنها . أولئك هم المتهمون الذين أخشى بأسهم ، لأنهم هم الذين ينشرون

(*) يعتقد كروازيه Croiset أن سبب الاتهام الحقيقى هو عداء زراع أتكا لكل من يثير الشك فى آلهة الدولة . فقد كان من أشهر أسواق الماشية سوق تقام ليشترى منها الأتقياء الصالحون ما يقربونه للآلهة من الماشية . وكان أى نقص فى العقيدة الدينية يسبب الكساد لهذه السوق ، وكان أرسطوفان وهو يعلل العداء على هـذا النحو إنما ينطق بلسان أولئك الزراع الذين تعرض عليهم مسرحياته إذ نجحت مراراً كثيرة(٣٦)

هذه الشائعة ، وسرعان ما يخيل إلى المستمعين ليهم أن من يفكر هذا التفكير لا يؤمن بالآلهة . وما أكثر هؤلاء ، وما أقدم التهم التى يوجهونها إلىّ ، وقد كانوا يوجهونها أثناء طفولتكم التى ينطبع فيها كل شىء قوياً فى عقولكم ، أو لعلهم وجهوها إلىّ فى أثناء شبابكم ، وسواء كان هذا أو ذاك فإن التهمة إذا وجهت ولم تجد من يفندها ثبتت فى العقول . وأصعب ما فى الأمر كله أنى لا أستطيع ذكر أسمائهم لأننى أجهلها ، اللهم إلا اسم واحد عرفته مصادفة وهو شاعر هزلى . . . تلك هى حقيقة التهم الموجهة إلىّ ، وهذا هو الذى رأيتموه بأعينكم فى مسلاة أرسطوفان[٣٩] » .

وهو يقول إنه مكلف برسالة إلهية هى أن يهدى الناس إلى الحياة الصالحة البسيطة ، وإنه لن يمتنع عن إبلاغ الناس هذه الرسالة أياً كان ما يهدد به .

« ولو فعلت لكان مسلكى عجيباً بحق . أى رجال أثينة ، إذا كنت وأنا تحت إمرة القواد الذين اخترتموهم رؤساء علىّ فى پوتيديا ، وأمفيپوليس ، ودیليوم قد ثبت حيث أمرونى بالثبات ، وواجهت الموت كما واجهه كل رجل آخر — وإذا كنت الآن ، وأنا أعتقد وأتصور أن الله يأمرنى بأن أؤدى رسالة الفيلسوف فأفحص عن نفسى وعن غيرى من الناس ، إذا كنت أنا أتخلى عن مهمتى خشية الموت . . . ، وإذا ما قلتم لى : يا سقراط إنا سنعفو عنك الآن ولانشترط عليك إلا أن تكف من هذه الساعة عن البحث والتفكير على هذا النحو . . . أجبتكم : أى رجال أثينة ، إنى أجلكم وأحبكم ، ولكنى سأطيع الله ولا أطيعكم ، ولن أمتنع ، ما دمت حياً وما دامت لدى قوة ، عن ممارسة الفلسفة أو تعليمها للناس ، أعظ كل من ألقاه على طريقتى الخاصة ، وأقنعه ، وأقول له ؛ أى صديقى ، لم تعنى كل هذه العناية كلها بادخار أكبر قدر مستطاع من المال والشرف والسمعة الطيبة ولا تدخر إلا النزر اليسير من الحكمة والحقيقة وأنت مواطن فى مدينة أثينة العظيمة ، القوية ، الحكيمة ؟ وأهيب بكم يا رجال

أثينة أن تفعلوا ما يأمركم به أنيتوس ، برئونى أو لا تبرئونى ، ولكن أيا كان ما تفعلونه بى ، فلتعلموا أنى لن أبدل طرائقى ، ولو مت مرات كثيرة[٤٠] .

ويبدو أن القضاة قد قاطعوه عند هذه النقطة ، وأمروه ألا يسترسل فيما بدا لهم أنه وقاحة ، ولكنه واصل دفاعه بكبرياء أشد من ذى قبل :

أحب أن تعرفوا أنكم إذا قتلتم رجلا مثلى ، أسأتم إلى أنفسكم أكثر مما تسيئون إلىّ ... لأنكم إن قتلتمونى لن يسهل عليكم أن تجدوا رجلا آخر مثلى ، فأنا ، إذا سمح لى أن ألجأ إلى هذا التشبيه المضحك السخيف ، كذبابة بعثها الله إلى الدولة ، والدولة شبيهة بجواد عظيم كريم ، بطىء الحركة لضخامة جسمه ، فى حاجة إلى ما يبث فيه الحياة ... وإذ كنتم لن تجدوا غيرى رجلا مثلى ، فإنى أنصحكم أن تبقوا علىّ[٤١] .

وصدر الحكم بإدانته بأغلبية ضئيلة لا تزيد على ستين صوتا ، ولو أن دفاعه كان أقل حدة وأكثر استرضاء للقضاة لكان من الجائز أن يبرأ . وكان من حقه أن يقترح عقابا آخر بدل الإعدام ، ولكنه أبى فى أول الأمر أن يطلب هذا الطلب ؛ فلما ألح عليه أفلاطون وغيره من الأصدقاء ، عرض أن يؤدى غرامة قدرها مائة مينا (٣٠٠٠ ريال أمريكى) . وضمنه أفلاطون وهؤلاء الأصدقاء فى تعهده . فلما أخذ الرأى للمرة الثانية زاد عدد أصوات الذين حكموا بإعدامه ثمانين صوتا على عددهم فى المرة الأولى[٤٢] .

وقد كان فى استطاعته بعدئذ أن يفر من السجن ، وقد مهد له أقريطون وغيره من الأصدقاء (إذا جاز لنا أن نصدق أفلاطون) بالرشا سبيل الفرار[٤٥] ، والراجح أن أنيتوس كان يأمل أن ينتهى الأمر على هذا النحو . ولكن سقراط بقى كما هو إلى آخر يوم من حياته : فقد كان يحس أنه لن تطول حياته أكثر من بضع سنين وأنه « لن يلقى عن كاهله إلا أبهظ جزء من الحياة ؛ وهو الجزء الذى يشعر فيه الناس كلهم أن قواهم العقلية آخذة فى النقصان[٤٦] »

لهذا لم يقبل اقتراح أقريطون ، بل أخذ يبحثه من وجهة النظر الأخلاقية ، ويناقشه على الطريقة الجدلية ، ويطبق عليه المنطق إلى النهاية(٤٧) . ولم ينقطع تلاميذه عن زيارته فى سجنه كل يوم خلال الشهر الذى انقضى بين إدانته وتنفيذ الحكم فيه ، ويبدو أنه ظل يتحدث إليهم وهو هادئ حتى الساعة الأخيرة من حياته . ويحدثنا أفلاطون أنه أخذ يعبث بشعر فيدون Phaedo ويقول : « يخيل إلى يافيدون أن هذه الغدائر الجميلة ستقص غدا » ـ حزنا علىّ . وجاءته زانثبى باكية وبين ذراعيها أصغر أطفالها ؛ فأخذ يواسيها ، وطلب إلى أقريطون أن يصحبها إلى دارها . وقال له أحد تلاميذه المتحمسين : « إنك لا تستحق هذه الميتة » فأجابه سقراط بقوله : « هل تريد إذن أن أستحقها(٤٩) ؟ » .

ويقول ديودور الصقلى(٥٠) . إن الأثينيين ندموا على فعلتهم بعد موته وأعدموا من اتهموه . ويقول سويداس إن ملاتوس مات رجما بالحجارة(٥١) ، ولكن فلوطرخس يروى رواية أخرى فيقول إن الشعب غضب على متهميه غضبا بلغ من شدته أنهم لم يجدوا مواطنا يوقد لهم النار ، أو يجيب لهم عن سؤال ، أو يستحم فى ماء استحموا هم فيه ، فلم يسعهم آخر الأمر إلا أن يقتلوا أنفسهم(٥٢) . ويروى ديوجانس لبرتيوس أن ملاتوس أعدم ، وأن أنيتوس نفى ، وأن تمثالا من البرنز أقيم فى أثينة تخليداً لذكرى الفيلسوف(٥٣) . ولكنا لا نعرف ما فى هذه القصص من الصدق أو الكذب(*) .

وانتهى العصر الذهبى بموت سقراط . فقد خارت قوى أثينة المادية والمعنوية ؛ ولم يكن ثمة ما يستطاع به تعليل القسوة المتناهية التى عاملت بها ميلوس ، والحكم الوحشى الذى أصدرته على متلينى ، وإعدام قواد أرجينوسى ،

(*) أما جروت(٥٤) . فيشك فيها ، ومما يبعث فى نفوسنا نحن الشك فى صدقها مايبذله أفلاطون وأكسانوفون من الجهد فى الدفاع عن سمعة سقراط . ولكن هذه الروايات كان يقبلها الناس بوجه عام فى الزمن القديم (كان يقبلها مثلا ترتليان وأوغسطين(٥٥)) ، وهى تتفق كل الاتفاق مع عادات الأثينيين .

والتضحية بسقراط على مذبح الدين المحتضر ، لم يكن ثمة ما يستطاع به تعليل هذا كله إلا ما أصاب الأخلاق فيها من تدهور بسبب الحروب الطوال التى خاضت غمارها وما جرته على أهلها من عذاب وآلام . لقد تصدعت جميع الدعائم التى تستند إليها الحياة الأثينية : فأقفرت تربة أتكا من جراء الغارات الاسپارطية ، وأحرقت أشجار الزيتون البطيئة النمو ، ودمر الأسطول الأثينى فلم تستطع أثينة بعد تدميره أن تسيطر على الطرق التجارية وتضمن ما يلزمها من الطعام ؛ وأقفرت خزائنها من المال ، وفرض على الثروات الخاصة من الضرائب الباهظة ما كاد يذهب بها كلها ؛ وقتل نحو ثلثى مواطنيها . وكان ما أصاب بلاد اليونان من الضرر بسبب غزوة الفرس أقل مما أصابها بسبب حروب البلوپونيز . لقد تركت موقعتا سلاميس وپلاتيا بلاد اليونان فقيرة ولكنها مرفوعة الرأس تملأ نفوس أهلها العزة وتعمر قلوبهم الشجاعة ، أما الآن فقد افتقرت بلاد اليونان مرة أخرى ، وأثخنت أثينة بجراح فى روحها مستنسرة لا يرجى لها برء .

ولم يكن يحفظ عليها حياتها إلا شيئان : عودة الدمقراطية على أيدى رجال من ذوى الحكمة والاعتدال ، وشعورها بأنها فى خلال الستين سنة الأخيرة ، وحتى فى خلال الحرب نفسها ، قد أخرجت إلى العالم فناً وأدباً لا يدانيهما نتاج أى عصر آخر فى تاريخ البشر . نعم إن أنكساغورس قد نفى ، وأن سقراط قد أعدم ، ولكن القوة التى بعثاها فى الفلسفة كانت تكفى لأن تجعل أثينة من ذلك الحين ، وعلى الرغم منها ، مركز التفكير اليونانى الذى بلغ فيها ذروته . فقد نضجت فيها تلك الآراء التى كانت من قبل أفكاراً تجريبية لم تتشكل بعد وأضحت نظماً عظيمة مستقرة ظلت مصدر الحركة فى الحياة الفكرية الأوربية عدة قرون ؛ وحلت محل نظم التربية العالية المضطربة التى لا تخضع لقاعدة والتى كان يتولى أمرها السوفسطائيون ، حلت محلها أولى الجامعات التى عرفها التاريخ — وهى الجامعات التى جعلت أثينة فى

مستقبل الأيام « مدرسة هلاس » كما تعجل وسماها سيديدز قبل اكتمالها . ولم تقض الحروب وما أزيق فيها من دماء وما أحدثته من فوضى واضطراب على مقومات الفن وتقاليده قضاء تاماً ، بل ظل المثالون والمهندسون اليونان عدة قرون بعد ذلك الوقت ينحتون ويشيدون لجميع بلاد البحر الأبيض المتوسط . ولقد انتعشت أثينة من اليأس الذى دب فيها بعد هزيمتها ، وعادت إليها حيويتها عودا يثير الدهشة ، فتجددت ثروتها ، وثقافتها ، وقوتها ، وازدهر خريف حياتها وأثمر أحسن الثمار .